الفصل الرابع
فى أجواء مكة المكرمة
والقاهرة فى الأربعينيات

● ولعل من الجميل ومن اللازم اللازب أن نقف مع بعض الصور التى رسمها – بريشة مصور موهوب – أديبنا المربى والتى نعايش من خلالها ظروف المكان والزمان، كأننا نراها، ومن ذلك ما قصَّه شيخنا محسن أحمد باروم عن حياته ونشأته فى شعب عامر على مشارف مكة المكرمة من جهة المروة لنعيش معه أحلى ذكريات الحج والعمرة – عسى الله أن يجعل لنا إليها عوداً مرات ومرات – حيث يحكى عن حياته الأولى فى بدايات خمسينيات القرن الرابع عشر الهجرى وبدايات القرن العشرين الميلادى (ثلاثينياته)، وفى معرض الحديث عن والده يقول: « وكان والدى السيد أحمد رجلاً طويل القامة، مسنون الوجه، تبدو عليه ملامح الذكاء وكرم الأخلاق ونبل الشيم، وهيبة المطلع، وكان بيته آنذاك موئلاً للفصل فى الخصومات بين أسر الحارة فى شعب عامر، يحضره عمدة المحلة وكبار شخصياتها لشهود وقائع جلسات الفصل بين المتخاصمين والمشاركة فى مآدب المصلحة احتفاء برأب الصدع والقضاء على أسباب الشقاق والخلاف بين تلك الأسر ».

● ولكن سرعان ما يفقد فتانا المكى والده سنة (١٣٥٥ هـ) وهو ابن سبع سنين تقريبًا فيعانى مع إخوته شظف العيش؛ لما كان على والده من الدَّين، ولظهور طلائع الحرب العالمية مما أدى إلى كساد اقتصادى فى الحجاز، فقد أدت حالة الحرب إلى تخلف الكثير من الحجيج؛ لانقطاع وسائل الانتقال، مما انعكس على الحالة الاقتصادية، وتأثرت به عائلة فتانا الحجازى، الذى يصف ذلك فيقول: « ... وأخذ الوالد يسير على منهجه فى الكرم واستضافة الناس آملاً فى انفراج الأزمة فى القريب العاجل، ولم يدر فى خلده أن الحرب ستمتد لعدة أعوام

تأكل فيها الأخضر واليابس فبيعت ممتلكاته بعد وفاته فى منى ومكة والزائد الثمين من أثاث البيت فى مزادات علنية وغير علنية لإرجاع هذه الديون لأصحابها » (١).

– ويحكى معاناة أخيه السَّيد عبد الله أحمد باروم الذى طفق يجاهد من أجل أسرة كبيرة تزيد على العشرة الأفراد وسرعان ما ينتقل إلى رحاب الله ليلحق بوالده سنة (١٣٦٠ هـ)، وتنتقل إدارة مسئولية الأسرة إلى شقيقه السَّيد محمد يعاونه الشقيق الأوسط اللذين انقطعا عن الدراسة الثانوية ليقوما على رعاية الأسرة وعملا معا فى وظيفة فى إدارة اللاسلكى، وبدأ وعى فتانا يتفتح للنهوض بالمسئولية والجد فى طلب العلم، وكان قد شب عن الطوق والتحق بالتعليم الثانوى بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، وخلال ذلك اضطلع بدوره فى تحمل الأعباء الأسرية، ويحدثنا عن دوره الفاعل ذلك فيقول عن نفسه: « فأخذ بنصيب وافر فى إدارة شئون عائلته كمساعد أول لأخيه الكبير، فقد أخذ على عاتقه القيام بمسؤليات البيت الداخلية من إمساك لمفاتيح المستودع الذى كان يضم من خيرات البيت من حنطة وأرز وغاز سائل » (٢).

– وعن جو التحصيل العلمى واستيعاب الدروس يقول الفتى: « ولا ينسى الفتى أنه إذا حل موسم الاختبارات وبدأت المذاكرة لمقررات الدروس المختلفة أنه كان يذهب مع كثير من زملائه إلى الحرم المكى الشريف ليذاكر هناك على ضوء المصابيح الكهربائية التى كانت توجد فقط فى المسجد الحرام، أما فى بيوتنا فكنا نذاكر فى ضوء فانوس (نمرة ٤) أو القمرية أو الأتريك » (٣).

– وليس من شك أن الشدائد وخشونة الحياة هى التى تصنع الرجال العظام وبناة نهضة الأوطان وصناع الحضارات وعوامل ازدهارها واستمرارها، ولكن يأتى الركون إلى الترف الاستهلاكى والبغى فى الأرض بغير الحق فيكون الانحدار والسقوط، ولهذا حذرنا الحبيب المصطفى ﷺ من إقبال الدنيا والاغترار بمتاعها

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ . (٢) السابق ص ٢٠ ، ٢١ . (٣) السابق ٢١ .

وترفها الجالب للفساد والظلم والطغيان، وفى تفسيره - ﷺ - لضعف أمة التوحيد وتخاذلها أمام الأعداء والطامعين من أحفاد الصليبين ورعاة البقر، وهو ما تنطق به حال أمتنا فى أيامنا هذه من الضعف والوهن والعجز وتخلف الإرادة الفاعلة، فيقول الصادق المصدوق: «الوهن: حب الدنيا وكراهة الموت»، ولهذا حثنا - عليه الصلاة والسلام - على حياة الخشونة وخشونة الحياة؛ لأن النعمة لا تدوم.

- وفى هذا السياق وجدنا أديبنا السيد محسن أحمد باروم يقدم لنا صوراً من تجاربه وحياته طوَّف بنا خلالها فى مختلف أنحاء الجزيرة بخاصة وأفريقيا وأوربا بعامة؛ ليقدم لنا تجاربه الثرية ومواقعه السنية ودروسه المربية الندية، يقدمها لأبناء أمته وأجيالها المتعاقبة، نبراساً يبدد ظلمات الطريق، ونوراً هادياً إلى سواء السبيل.

● وهذه صورة أخرى سجلتها مصورة أديبنا من القاهرة أواسط الأربعينيات الميلادية من القرن العشرين حيث كانت القاهرة تموج بقمم الفكر والثقافة والمعارك الأدبية بين أقطاب الفكر والأدب والفلسفة والسياسة والاقتصاد، نرى من خلالها كَلَف صاحبنا الحجازى الجامعى بأجواء القاهرة المتألقة الفياضة بالحيوية والنشاط والإبداع، ونلحظ إقباله النبيل على محافلها العلمية والثقافية ومنتدياتها الفكرية والأدبية، إقبال المحب المقيم بالعلم والأدب والثقافة، إقبال من يريد أن يستفيد من كل لحظة يقضيها فى رياض القاهرة ومغانيها الفياضة بالجمال والجلال، ليعود إلى وطنه مزوداً بالعلم والمعرفة والتجربة والأحلام الكبيرة؛ وليكون عند حسن ظن حكومته به، حكومة وطنه التى لم تضن عليه بشئ من الإنفاق والرعاية والتشجيع، وللجد والاجتهاد والاستزادة من بحور العلم والمعرفة؛ كى يعود ليتبوأ مكانه فى طلائع جنود النهضة وصُنّاع رخاء الوطن وقوته وعزته. يقول الأستاذ عن تلك الفترة التى قضاها فى طلب العلم فى القاهرة: «وليس لى ما أقوله إلا أننى كنت سعيداً إلى أقصى حدود السعادة، بوجودى فى مصر، أتابع

الحياة الأدبية والثقافية والفكرية فيها، فقد كانت تغصُّ فى فترة الستينات الهجرية بأقطاب الرأى والأدب والفكر والسياسة من أمثال لطفى السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الوهاب عزام وأمين الخولى وزكى مبارك وأحمد حسن الزيات ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وعلى الجارم ومصطفى عبد الرازق، ومحمد عوض محمد ومحمود شلتوت ومحمد البهى ومحمد يوسف موسى، ومحمد محمد المدنى وأبو زهرة وإسماعيل القبانى ومحمد فريد أبو حديد وعبد العزيز القوصى وسيد قطب ومحمد مندور وغيرهم من أعلام الأدباء والمفكرين الذين أحدثوا تيارات فكرية وتربوية لا فى مصر وحدها، وإنما فى عالمنا العربى الحديث، والثقافة العربية الحديثة، وكانوا نوافذ مشرقة لنقل الثقافة الغربية إلى ذلك العالم المتعطش إليها فى مختلف مجالات المعرفة» (١).

– وبرغم الإطالة فى النقل عن الشيخ لا يسعنى أن أترك السطور الآتية لأستاذنا والتى ترسم طريق النجاح المبدع والأداء العبقرى لأى دارس واعد فى التميز الوظيفى والتفرد الشخصى فى مجاله؛ لأن هذا النهم فى البحث والاستماع والحضور الواعى لمختلف النشاطات الفكرية والأدبية فى القاهرة، دون الانغلاق على الذات أو الاكتفاء بالمقرر الدراسى يُعد رافداً مهمًا فى تفسير ثراء شخصية رائدنا الشيخ محسن باروم وسعة أفقة وإبداعه فى الحقل الوظيفى وارتقائه السلم الوظيفى إلى أعلاه فى وقت وجيز من عمر الزمن، وها هو ذا يصور لنا ببيانه الفصيح أجواء قاهرة الأربعينيات الميلادية الأدبية والثقافية فيقول: «لقد كنت حريصاً إلى أقصى حدود الحرص ألا أكتفى بثقافة الكلية المحدودة، بل كنت أتطلع إلى أن أستفيد من روافد الثقافة الحديثة والتى أشاعها بيننا هؤلاء الأعلام فى كتاباتهم ومؤلفاتهم الكثيرة التى حملت إلينا بذور المناهج الحديثه فى دراسة الأدب والنقد والفكر والثقافة والاجتماع، فقد كنت سعيداً

---

(١) السابق ص ٤٤، ٤٥.

بأن أسعى إلى سماع محاضرتهم وندواتهم ومناقشاتهم للرسائل الجامعية فى مختلف الجامعات المصرية وفى قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ومدرجات الكليات الأزهرية ودار الحكمة والجمعية الجغرافية الملكية ودار الشبان المسلمين، كما كنت حريصا على متابعة صحيفة (الأهرام) اليومية للتعرف على أماكن ومواعيد المحاضرات والندوات ومناقشة الرسائل الجامعية، لأشهد وقائعها المثيرة، مما كان له أعظم الأثر فى اتساع دائرة الرؤية الثقافية وتعميق النظرة العقلية وردم الفجوة الثقافية بين معلومات الدروس والمناهج العلمية التى نأخذها فى كلية اللغة العربية وبين الدروس والعبر التى نستخلصها من الروافد الفكرية الحديثة ثراءً فى الفكر واتساعًا فى المدارك وعمقًا فى المعارف وزيادة فى التجارب العلمية والفكرية الخصبة [1].

* * *

(١) السابق ص ٤٥، ٤٦.